

المعيار الأخلاقي في الخطاب النقدي العربي القديم

*د. شميصة خلوي

جامعة الجزائر2، الجزائر.

البريد الإلكتروني: dr.choumayssa-khaloui@hotmail.fr

ملخص البحث

إنّ معيار النقد الفني عند النقاد العرب القدامى لم يقف عند نقد المعنى أو المبني، بل تعداه إلى المعيار الأخلاقي المرتبط بالجانب الديني، ومعلوم ما للنظام الأخلاقي من أهمية في العبادات والمعاملات في الإسلام، الأمر الذي أثر على الأدب ونقده أيضا.

وعلى هذا، يعتبر هذا المعيار من أهم خصوصيات الخطاب النقدي العربي القديم، والذي يميزه عن غيره، لذلك سنعرض في هذه المداخلة لمختلف جوانب المعيار الأخلاقي لدى النقاد العرب القدامى من أمثال أبي بكر الباقلاني (ت: 403هـ) وابن شرف القيرواني (ت: 460هـ) وابن رشيق القيرواني (ت: 463هـ) وأبي الفضل عياض اليعصبي (ت: 544هـ).
الكلمات المفتاحية: الأدب العربي القديم، الخطاب النقدي القديم، المعيار الأخلاقي.

Abstract:

In the present paper, we takes car of studing the moral criterion in the arabic ancient critical Discourse, and If we look at our Arabic literature we will think of the deep –rooted direction of the Moral Scale in the Ancient Arabic Criticism, with al baqilani, al qadi iydh, ibn sharaf, and ibn rashiq.

Key-words: the moral criterion, traditional critics, Ancient Arabic literature.

* المؤلف المرسل: د. شميصة خلوي dr.choumayssa-khaloui@hotmail.fr

الحمد لله حمداً يوافي نعمه، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وخاتم رسله، وبعد،

فإن كل تأليف يخلق مجالاً للنقد فور إنتاجه وعرضه للقراء والمهتمين، ويكون صوت الناقد مسموعاً في بيان قيمة الأثر المدوّن، وبين كشف لمواطن الجمال أو القبح، تختلف الرؤى وتتنوع حسب الخلفيات الثقافية وحسب الأداة الإجرائية المتبعة لتحليل المدونة.

حينها، يكون الناقد همزة وصل بين العمل المطروح والقارئ -العادي والمتخصص-، يترسّم العمل ويتوسّمه، يقلّب فيه النظر ويسبر غوره ليظهر مكنونه.

وقد عرف العربي النقد منذ عصر ما قبل الإسلام⁽¹⁾، حيث كان النقد مجرد انطباع كلي، يعبر عن أحكام جزئية، وكان الرواة يتناقلون هذه الأحكام مشافهة أو يردّدونها في المجالس الأدبية.

إلى أن ازدهرت الحركة النقدية مع ابن سلام الجمحي (ت: 231هـ) في طبقاته دانية القطوف، وابن قتيبة (ت: 276هـ) في "الشعر والشعراء" وما احتواه من لطائف الإشارات النقدية، إلى أبي هلال العسكري (ت: 395هـ) في كتابه الفريد في فنه: "الصناعتين"، وابن رشيق القيرواني (ت: 463هـ) في "العمدة" الذي طوي على فصول دقيقة البحث، وغيرها من الكتب النقدية الأصيلية التي حفلت بها المكتبة العربية.

ومعلوم ما لقضايا النقد العربي القديم من تنوع وتفرع، فبين نقد المعنى والمبنى سال من المداد الشيء الكثير، لكن معيار النقد الفني عند النقاد العرب القدامى لم يقف عند نقد المعنى أو المبنى، بل تعداه إلى المعيار الأخلاقي المرتبط بالجانب الديني، ومعروف ما للنظام الأخلاقي من أهمية في العبادات والمعاملات في الإسلام، الأمر الذي أثار على الأدب ونقده أيضاً.

(1) مصادر كثيرة تحدثت عن تاريخ النقد العربي، وكفي الاطلاع على تاريخ النقد الأدبي عند العرب لإحسان عباس، على سبيل

المثال لا الحصر.

فالناقد المتشبع بالأخلاق الحسنة سيجد نفسه وهو يمارس النقد مجبرا على الإشارة والتنبيه، والرفض أحيانا لكل ما يخالف فطرته الأخلاقية والتي صقلها الإسلام وأعطاهها بُعدا دينيا، والخلق هو «حال النفس، بما يفعل الإنسان أفعاله بلا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد، كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمُّل، وكالشجاعة والحلم والعفة والعدل وغير ذلك من الأخلاق الحمودة»⁽¹⁾.

وإن ارتباط الإبداع الشعري بالأخلاق بدا بعد الإسلام عند أوائل النقاد ممن أجادوا في هذا المجال وكانوا أعلاما يرجع إليهم ويستدل بآرائهم، وهذا عمرو بن العلاء يعلق على شعر لبيد وكيف لان بعد أن دخلته الروح الإسلامية وحوّرت معانيه: «ما أحد أحبَّ إليَّ شعرا من لبيد بن ربيعة، لذكره الله عزَّ وجل، وإسلامه، ولذكره الدين والخير؛ ولكن شعره رحي بزر»⁽²⁾.

ومما سبق ذكره، يعتبر هذا المعيار الأخلاقي من أهم خصوصيات الخطاب النقدي العربي القديم، والذي يميزه عن غيره، لذلك سنعرض في هذه المداخلة لمختلف جوانب المعيار الأخلاقي لدى النقاد العرب القدماء من أمثال أبي بكر الباقلاني (ت: 403هـ) و ابن شرف (ت: 460هـ) وابن رشيق القيرواني (ت: 463هـ) وأبي الفضل عياض اليحصبي (ت: 544هـ).

1. أبو بكر الباقلاني (ت: 403هـ):

(1) الجاحظ، تهذيب الأخلاق، قرأه وعلق عليه: إبراهيم بن محمد، ط1، دار الصحابة للتراث، 1410هـ/ 1989م، 12.

(2) أبو عبيد الله بن محمد المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، 84.

أ. ترجمته:

هو⁽¹⁾: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر الباقلائي، ولد سنة 338هـ، وتوفي سنة 403هـ، متكلم فقيه، نشأ في البصرة وبها قضى فترة شبابه، إلى أن استقر ببغداد بقية حياته.

وُصف بالمتكلم لالتجاهه إلى علم الكلام، يقول ابن تيمية: «وهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري، ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده»⁽²⁾.

وعلى هذا عُدَّ الباقلائي أحد أئمة هذا المذهب، أما وصفه بالفقيه، فلكونه من كبار فقهاء المذهب المالكي، وصفه القاضي عياض فقال عنه: «شيخ السنة، ولسان الأمة، المتكلم على مذهب المثبتة، وأهل الحديث، وطريقة أبي الحسن الأشعري»⁽³⁾.

تتلمذ الباقلائي على مجموعة من كبار علماء عصره كالمتكلم ابن مجاهد الطائي، وعنه أخذ علم الكلام والفقه المالكي وأصوله، وكذا شيخ المتكلمين أبو الحسن الباهلي البصري تلميذ أبي الحسن الأشعري، وغيرهما مما كان لهم الفضل في إحاطته بمختلف المعارف والتفوق على أقرانه.

كما عاصر الباقلائي علماء عدة أمثال: إبراهيم بن محمد الإسفراييني وأبو بكر محمد بن الحسن فورك.

(1) ينظر: شمس الدين بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1971م، 4/291، وعادل نويهض، معجم المفسرين - من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر - ط3، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان، 1409هـ - 1988م، 2/542، وغيرهما.

(2) تقي الدين ابن تيمية الحراني، الفتوى الحموية الكبرى، تحقيق: حمد بن عبد المحسن التويجري، ط2، دار الصميعي، الرياض، 1425هـ / 2004م، 6/170.

(3) القاضي عياض اليحصي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: سعيد أحمد أعراب مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 44/7.

أما تلاميذه فهم كثيرون، فقد كانت للباقلاني حلقات علم، وإن من أشهر تلاميذه: أبو عبد الله الأزدي، وأبو طاهر البغدادي اللذان نشرتا علمه في المغرب العربي.

وللباقلاني مؤلفات عدة، معظمها فقد ولم يصلنا، ومما وصلنا وبقي شاهداً على علمه، كتابه: "إعجاز القرآن" وله أيضاً: كتاب "التمهيد في الرد على الملحدة والمعتلة والرافضة والخوارج"، و"الإنصاف في أسباب الخلاف" وغيرها.

ب. المعيار الأخلاقي عند أبي بكر الباقلاني:

إن معيار النقد الفني عند أبي بكر الباقلاني لا يقف عند نقد المعنى أو المبنى فحسب، بل يتعداه إلى تشغيل المعيار الأخلاقي في ممارسته للنقد، فهذا هو «يعيب معلقة أمري القيس من زاوية أخلاقية»⁽¹⁾، على شاكلة إرادته للبيتين التاليين:

فقلتُ لها سيري وأزحي زمامهُ *** ولا تُبعديني من جنائك المعلن

فمِثْلِكَ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ *** فألهيْتُها عن ذي تَمائِمٍ محول

فحين وقف عند شرح البيتين، وتحديدًا عند قول الشاعر: "فمِثْلِكَ حُبْلَى قد طَرَقْتُ"، قدَّره بأنه «زير نساء، وأنه يفسدهن ويلهيهن عن حبلهن ورضاعهن، لأن الحبل والمرضعة أبعد من الغزل

وطلب الرجال!»⁽¹⁾.

(1) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط4، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1404هـ - 1983م، 31.

ويواصل: «والبيت الثاني في الاعتذار والاستهتار والتهيام، وغير منتظم مع المعنى الذي قدمه في البيت الأول، لأن تقديره: لا تبعديني عن نفسك فيأني أغلب النساء، وأخدعن عن رأيهن، وأفسدنه بالتغازل! وكونه مفسدة لمن لا يوجب له وصلهن وترك إبعادهن إياه، بل يوجب هجره والاستخفاف به، لسخفه ودخوله كل مدخل فاحش، وركوبه كل مركب فاسد! وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من مثله، ويأنف من ذكره!»⁽²⁾.

وهذا الكلام يبين لنا مدى اهتمام الباقلاني بالمعيار الأخلاقي أثناء نقده للمعنى، ويتضح لنا من خلال حشد الباقلاني لمجموعة من الألفاظ التي تدل على خروج الشاعر عن المقصد الأخلاقي.

2. ابن شرف (ت: 460هـ):

أ. ترجمته:

هو⁽³⁾: محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني أبو عبد الله الجذامي أحد فحول شعراء المغرب العربي، أصله من القيروان حيث ولد بها، واتصل بالمعز بن باديس أمير إفريقية، فألحقه بديوان حاشيته، ثم جعله في ندمائه وخاصته، واستمر إلى أن زحف عرب الصعيد واستولوا على معظم القطر التونسي، فارتحل المعز إلى المهدية ومعه ابن شرف، ثم رحل ابن شرف إلى صقلية، ومنها إلى الأندلس، ومات بإشبيلية.

(1) أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، 167.

(2) المرجع السابق، 167.

(3) ينظر: صلاح الدين الصفدي، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1974م، وصلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركبي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 1420هـ-2000م، 82/3.

من كتبه "أبكار الأفكار" وهي مختارات شعرية ونثرية، و"مقامات" عارض بها بديع الزمان، والتي نشرت باسم "رسائل الانتقاد".

ب. المعيار الأخلاقي عند ابن شرف:

ليس ابن شرف ببعيد في الإسهام هو الآخر في إدخال المفاهيم الأخلاقية المستمدة من الإسلام إلى حقل النقد الأدبي، وتطبيقها على الشعر في أحيان كثيرة، فلا نجد يغض الطرف عن بيت زهير بن أبي سلمى وهو ينشد:

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشَوَاءَ مَنْ تُصِبْ *** ثَمْتُهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرَ فَيَهْرَمَ

فيقول ابن شرف معلقاً على معنى البيت: «ذلك أن قول زهير "خبط عشواء" إنما يصح لو أن بعض الناس يموت وبعضهم ينجو، وقد علم زهير أن المنايا لا تخطئ شيئاً، وإنما الوهم عليه موت قوم اعتباطاً وموت آخرين هرماً، فظن طول العمر سببه أخطاء المنية»⁽¹⁾.

ولا يلزمنا الاستدلال الكثير لمعرفة خلفية أساس هذا الحكم النقدي، فيكفي أن نذكر الحقيقة الدينية التي وردت في القرآن الكريم، حيث يقول عز وجل: «وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (المنافقون: 11).

أما في قول زهير ابن أبي سلمى:

⁽¹⁾ ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد زينه محمد عزب، دار الآفاق العربية، 34.

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ *** يُهَدَّمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ

فيعلق ابن شرف على معنى البيت من وجهة نظر أخلاقية قائلا: «تجاوز في هذا الحق الباطل وبنى قولا ينقضه جريان العادة وشهادة المشاهدة، وذلك أن الظلم وعرة مراكبه مذمومة عواقبه في جاهليته وإسلامنا فحرض في شعره عليه»⁽¹⁾.

ولا غرو أن نقد ابن شرف لبيت زهير مستقى من تعاليم الإسلام التي تحث على الصفات الحسنة وتنبذ الرذائل، فابن شرف لا يوافق ما ذهب إليه الشاعر من رد الظلم بالظلم، فليس كل من كفَّ يده عن ظلم الغير، استطالوا عليه وظلموه، بل الواجب هو الابتعاد عن ظلم الخلائق، والله عز وجل يقول: «وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111)» (طه: 111).

3. ابن رشيق القيرواني (ت: 463هـ):

أ. ترجمته:

هو⁽²⁾: أبو علي الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني؛ أحد الأفاضل البلغاء، ولد بالمسيلة وتأدَّب بها، ثم تافت نفسه إلى التزيد من العلم وملاقة أهل الأدب، فارتحل إلى القيروان حيث اشتهر بها، ولم يزل هناك إلى أن هاجم العرب القيروان وقتلوا أهلها وخربوها، فانتقل إلى جزيرة صقلية، وأقام بمازر إلى أن توفي العام 463هـ.

⁽¹⁾ ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، 34.

⁽²⁾ ينظر: أبو الفلاح ابن العماد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، تخريج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، 1406هـ - 1986م، 237/5، ياقوت الحموي، معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1414هـ - 1993م، 861/2، و شمس الدين ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1900م، 85/2.

له من التصانيف المطبوعة كتاب "العمدة في محاسن الشعر وآدابه" و"أنموذج الزمان في شعراء القيروان" و"قراضة الذهب في أشعار من ذهب" وله أشعار جمعت في ديوان⁽¹⁾.

مما قاله شعرا⁽²⁾:

أَحِبُّ أَخِي وَإِنْ أَعْرَضْتُ عَنْهُ *** وَقَلَّ عَلَى مَسَامِعِهِ كَلَامِي

وَلِي فِي وَجْهِهِ تَقْطِيبٌ رَاضٍ *** كَمَا قَطَّبْتُ فِي إِثْرِ كُلْمُدَامٍ

وَرُبَّ تَقْطِيبٍ مِنْ غَيْرِ بُعْضٍ *** وَبُعْضٍ كَامِنٍ تَحْتَ ابْتِسَامٍ

ب. المعيار الأخلاقي عند ابن رشيق القيرواني:

يعد كتاب "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده" كتابا نقديا بامتياز، إذ لا نزال نحتكم إليه في مختلف القضايا النقدية التي تَوَطَّرَ المجال الأدبي العربي القديم، ولعلنا نقول إن ابن رشيق «قد نقل النقد من المشرق إلى المغرب في هذا القرن»⁽³⁾.

ومعلوم لدى المتتبعين لمنهج ابن رشيق النقدي ما يورده من آراء مختلفة أثناء بسطه للأحكام النقدية، ومحاولته تحاشي الذاتية، ورغم ذلك نلني بعض الإشارات للمعيار الأخلاقي الذي اتبعه أثناء حكمه على الشعر والنثر في العمدة.

(1) جمع الدكتور موسى مريان أشعار ابن رشيق ورتبها وشرح غامضها وقدم لها في "ديوان ابن رشيق القيرواني" ط1، منشورات دار الكاتب للطباعة والنشر والتوزيع، 2012م.

(2) ينظر: أبو الفلاح ابن العماد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 237/5.

(3) أحمد زغلول سلام، تاريخ النقد العربي، دار المعارف مصر، 131/2.

فها هو يضع بصمته النقدية المبنية على الخلق الكريم البعيد عن الهجاء والفحش فيقول: «وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود، وترك الفحش فيه أصوب، إلا جريراً فإنه قال لبنيه: إذا مدحتهم فلا تطيلوا الممدوحة، وإذا هجوتهم فخالقوا، وقال أيضاً: إذا هجوت فأضحك، وسلك طريقته في الهجاء سواء علي بن العباس بن الرومي، فإنه كان يطيل ويفحش، وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح»⁽¹⁾.

ومن ثمة، يتضح جلياً كيف مال ابن رشيقي إلى ترك الفحش وتجاوى عن الهجاء لأنه أحسن وأصوب، وهو في ذلك على مثل رأي كثير من النقاد والكتاب البارزين على شاكلة ابن بسام الذي يقول: «صنت كتابي هذا عن شين الهجاء، وأكبرته أن يكون ميداناً للسفهاء، أجريت هاهنا طرفاً من مליح التعريض في إيجاز القريض، مما لا أدب على قائله، ولا وصمة أعظم على من قيل فيه»⁽²⁾.

4. أبو الفضل عياض اليحصبي (ت: 544هـ):

أ. ترجمته:

⁽¹⁾ ابن رشيقي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، 1401هـ/1981م، 2/172.

⁽²⁾ أبو الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، ط1، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1981م.

هو⁽¹⁾: القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، الأندلسي السبتي المالكي، ولد سنة 476هـ، وتوفي سنة 544هـ، تحول جدهم من الأندلس إلى فاس، ثم سكن سبتة، أخذ العلم بداية عن الحافظ أبي علي الغساني إجازة، استقضي ببلده مدة طويلة حمدت سيرته فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة فلم يطل أمده بها وقدم قرطبة.

روى عن القاضي أبي علي بن سُكَّرَة الصَّدفي ولازمه وعن أبي بحر بن العاص ومحمد بن حمدين وغيرهم من الشيوخ، و تفقه عن أبي عبد الله بن عيسى التميمي والقاضي محمد بن عبد الله المسيلي.

جاء في أزهار الرياض وصف شامل لشخصية القاضي عياض: «قال الملاحي: كان القاضي عياض رحمه الله تعالى بحر علم وهضبة دين وحلم أحكم قراءة كتاب الله تعالى بالسبع وبلغ من معرفته الطول والعرض وبرز في علم الحديث وحمل راية الرأي ورأس في الأصول وحفظ أسماء الرجال وثقب في علم النحو وقيد اللغة وأشرف على مذاهب الفقهاء وأنحاء العلماء وأغراض الأدباء»⁽²⁾، وهو على ذلك من خيرة العلماء الفضلاء.

⁽¹⁾ ينظر: شمس الدين بن قَائِمَاز الذهبي، تاريخ الإسلام وَوَفَيَات المشاهير والأعلام، بشار عَوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م، 860/11، وسير أعلام النبلاء، شعيب الأرنؤوط، ط3، مؤسسة الرسالة، 1405هـ / 1985م، 212/20، وأبو القاسم بن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني، ط2، مكتبة الخانجي، 1374هـ - 1955م، 430، وأبو عبد الله الأنصاري الأوسي المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق وتعليق: إحسان عباس، محمد بن شريفة، بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، 2012م، 114/5.

⁽²⁾ شهاب الدين أبو العباس المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإيباري وعبد العظيم شلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358هـ - 1939م، 07/3.

جمع وألّف حتى اشتهر اسمه في الآفاق، ومن تصانيفه "كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى" و "كتاب إكمال المعلم بشرح مسلم"، و "كتاب التنبيهات المستنبطة على المدونة والمختلطة" و "كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك" و "كتاب الإعلام بحدود قواعد الإسلام" وغير ذلك من التواليف البديعة.

وله شعرٌ حسن، على شاكلة قوله:

انظُرْ إلى الزَّرْعِ وخاماتِهِ *** تحكي وقد ماسّت أمام الرِّياح

كتيبةٌ خضراء مهزومةٌ *** شقائق النعمانِ فيها جراح

ب. المعيار الأخلاقي عند القاضي عياض اليحصبي:

إنه وبحكم الاطلاع الموسوعي للقاضي عياض على مختلف أمهات الكتب الأدبية واللغوية، فإننا نجده قد خلّف لنا بعض الآراء النقدية الموجهة للنصوص الأدبية خصوصا الشعر، مبثوثة في مختلف مؤلفاته ولا سيما "الشفّا بتعريف حقوق المصطفى".

ويعد كتاب "بغية الرائد" لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد⁽¹⁾ وتحديدا آخر فصل منه⁽¹⁾ شاهدا على الحس النقدي للقاضي عياض، وعنّها يقول عبد الله الطيب: «للقاضي عياض رحمه الله ورضي

(1) القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي، بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، ومعه تفسير نفس الحديث للحافظ السيوطي، تحقيق: صلاح الدين بن أحمد الإدلي ومحمد الحسن أجانف ومحمد عبد السلام الشراقوي، 1395هـ / 1975م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 186.

عنه رسالة من الروائع في باب النقد كان ينبغي من أجلها وحدها أن يذكر بين كبار النقاد»⁽¹⁾، هذا النقد الذي لم يكن خاليا من الاحتكام إلى الأخلاق الفاضلة قبل إصدار الأحكام النقدية.

فأثناء تمثيله لما اعتبره قصداً للهزل والتندير من طرف الشعراء، ساق القاضي عياض بيتا للمتنبي للدلالة على رأيه:

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارَكُهَا اللَّـهُ ***
هُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثُمُودٍ⁽²⁾

وحشره ضمن «أشعار المتعجرفين في القول المتساهلين في الكلام»⁽³⁾، ولعل الأمر ارتبط عنده بجرأة المتنبي في تشبيه حاله بحال نبي الله صالح.

واستشهد بعد ذلك ببيت للمعري في نفس سياق الحكم النقدي حين أنشد:

كُنْتُ مُوسَى وَاقِفَتُهُ بِنْتُ شُعَيْبٍ ***
غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فِيكُمْ مِنْ فَقِيرٍ⁽⁴⁾

وقد اعتبره «داخلا في الإزراء والتحقير بالنبي صلى الله عليه وسلم وتفضيل حال غيره عليه»⁽⁵⁾، وذلك بتشبيهه ممدوحه وزوجته بموسى عليه السلام وزوجته وهي بنت نبي جهلا منه برفيع شأنهم وبديع مكانه.

(1) عبد الله الطيب، القاضي عياض الناقد، مجلة المناهل المغربية، العدد: 19، 199.

(2) أبو الفضل بن موسى اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، 1409هـ - 1988م، 239/2.

(3) المرجع السابق، 240/2.

(4) السابق، 240/2.

(5) السابق، 240/2.

وأخيرا نقول : إن الأمثلة التي أوردناها تدل على التزام العينة المختارة من النقاد بما ارتضاه الإسلام من قيم أخلاقية ممثلة في الأدب شعره ونثره.

لأن الواقع هو أن «هؤلاء النقاد ظهوروا في عهد الإرهاصات النقدية التي كانت في معظمها قائمة على أساس أخلاقي هدفها خدمة هذا الدين الحنيف بالدرجة الأولى ثم خدمة الأدب في الدرجة الثانية أضف إلى ذلك أن هؤلاء النقاد كانوا فقهاء بطريقة أو بأخرى»⁽¹⁾، فصار بذلك الإبداع الشعري مرتبطا بالأخلاق المستقاة من الإسلام، باعتبار الدين أصبح السلطة التي تسيّر دنيا المسلم وآخرته.

مصادر ومراجع الدراسة:

- أحمد زغلول سلام، تاريخ النقد العربي، دار المعارف مصر.
- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط4، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1404هـ - 1983م.
- الجاحظ، تهذيب الأخلاق، قرأه وعلق عليه: إبراهيم بن محمد، ط1، دار الصخابة للتراث، 1410هـ/ 1989م.

⁽¹⁾ محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، نشأته وتطوره حتى القرن السادس الهجري، مقارنة تاريخية/ فنية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2015م، 246.

- أبو الحسن علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، ط1، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، 1981م.
- أبو الفلاح ابن العماد العكري الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، تخريج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، بيروت، لبنان، 1406هـ - 1986م.
- أبو الفضل بن موسى اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، 1409هـ - 1988م.
- أبو القاسم بن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني، ط2، مكتبة الخانجي، 1374هـ - 1955م.
- أبو عبد الله الأنصاري الأوسي المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق وتعليق: إحسان عباس، محمد بن شريفة، بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، 2012م.
- ابن رشيقي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، 1401هـ / 1981م.
- _____، الديوان، تحقيق: جمع وترتيب وشرح الغامض والتقديم: موسى مريان، ط1، منشورات دار الكاتب للطباعة والنشر والتوزيع، 2012م.
- ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد زينهم محمد عزب، دار الآفاق العربية.
- بدوي طبانة، علم البيان (دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية) ط2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1967م.
- تقي الدين ابن تيمية الحراني، الفتوى الحموية الكبرى، تحقيق: حمد بن عبد المحسن التويجري، ط2، دار الصميعي، الرياض، 1425هـ / 2004م.
- شمس الدين بن قَائِمَاز الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط3، مؤسسة الرسالة، 1405هـ / 1985م.
- _____، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م.
- شهاب الدين أبو العباس المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد العظيم شلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358هـ - 1939م.

- صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 1420هـ - 2000م.
- عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، ط3، الدار العربية للكتاب.
- شمس الدين بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1971م.
- عادل نويهض، معجم المفسرين - من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر - ط3، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان، 1409هـ - 1988م.
- عبد الله الطيب، القاضي عياض الناقد، مجلة المناهل المغربية، العدد: 19.
- عياض بن موسى اليحصبي السبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: سعيد أحمد أعراب مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.
- _____، بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، ومعه تفسير نفس الحديث للحافظ السيوطي، تحقيق: صلاح الدين بن أحمد الإدلي ومحمد الحسن أجانف ومحمد عبد السلام الشرقاوي، 1395هـ / 1975م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.
- محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، نشأته وتطوره حتى القرن السادس الهجري، مقارنة تاريخية/ فنية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2015م.
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1414هـ - 1993م.